سبايا العرب

لقد عرف كل من يتابع مدوناتي الأسبوعيّة، أنني لم أكتب مدوّنة هذا الأسبوع. كان الأمر عبارة عن استراحة قصيرة وذلك لأن الكتابة الأسبوعيّة متعبة ومرهقة، فما أن أنتهي من مدوّنة حتى أبدأ بالتّفكير بموضوع جديد لمدوّنة جديدة. وهذا بحد ذاته مُتعب ومُرهق ناهيك عن اختيار موضوع جديد وشيّق، والبحث عن طُرفة مناسبة. لذلك فضّلت ألّا أكتب هذا الأسبوع، من مُنطلق أنه يفضّل عدم الكتابة إذا لم يكُن هناك موضوع يستحق التّطرق إليه.

أو كما علّقت لي زميلتي حنان: "استراحة المفكّر لانطلاقة أقوى. خير من كلمات بالهواء". طبعًا أنني أوافقها القول باستثناء أنني "مفكّر" فهذه كلمة كبيرة ومسؤولية أكبر وأنا لست كذلك.

اعترف أنني قد تفاجأت من الرسائل التي تلقيتها والتي تتساءل وتستهجن عدم وصول المدوّنة الأسبوعيّة، وانهالت التساؤلات حول الأسباب لذلك، فكان جوابي مراوغًا حيث نَسبْت السّبب للحرب الأوكرانيّة الروسيّة من جهة واحدة وللجفاف الفكري من ناحية أُخرى.

لم يدُم صمتي أكثر من 24 ساعة، فقد تم استفزازي بصورة كبيرة ممّا جعلني أخرج عن صمتي.

بالطبع تتساءلون ما الذي استفزّني؟ لا لا لم تستفزّني الحرب رغم الإحباط والاكتئاب الذي يرافق أحداثاً من هذا القبيل، فالتأثير مُباشر على كلّ واحد منّا، ليس فقط من النّاحيّة الإنسانيّة والسياسيّة، فويلات الحرب هي من أسوأ ما يُمكن أن تتعرّض إليه البشرية، ناهيك عن التأثيرات الاقتصادية المُرافقة لذلك، من غلاء بأسعار الوقود والبنزين وهبوط في أسواق الأسهم والبورصات العالميّة، بالإضافة إلى زيادة عدد اللاجئين الذين يُضافون إلى الأعداد الهائلة والمُتزايدة بأرجاء العالم. كلّكم تعرفون هذا، ولكن ما أثار استفزازي واشمئزازي في آنٍ واحد هو قضيّة "الفتيات الأوكرانيات"، حيث اشتعلت منصّات التواصل الاجتماعي بأخبار الفتيات، اللواتي سرعان ما سيصبحن متاحات لشبابنا اللاهثين وراء تطبيق عادات آبائنا العرب القدماء الذين طالما نادوا "بإكرام الضّيف وإغاثة الملهوف". بالطبع أنتم تعلمون جيدًا سُخريتي من الموضوع فنحن لسنا كذلك وما هذا إلّا شعارٌ أجوف أكل الدّهر عليه وشرب.

حسب توقعات شبابنا وتقديراتهم وتحليلاتهم العسكريّة فإنه في حالة خسارة روسيا الحرب، فسيحصل كل شاب عربي على سبع فتيات روسيّات، وأما إذا خسرت أوكرانيا، وهذا هو الاحتمال الأكبر، فإنّ كل شاب عندنا سيحصل على أربعة فتيات أوكرانيّات. وإذا نظرنا إلى النتيجة من جميع النواحي فإننا نخرج بربح كبير بأقل تكاليف.

هذه ليست المرّة الأولى أو الوحيدة التي نواجه فيها هذا الواقع، ففي سنوات الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، ونتيجة لانهيار الاتحاد السوفياتي،

تعرّضت البلاد إلى هجرة كبيرة من روسيا وازدانت البلاد بكمٍّ هائل من الفتيات الشقراوات ذوات العيون الزرقاء، الفقيرات على الأغلب، الباحثات عن "العطف والحنان" والدعم الماديّ ممّا أدى إلى موجة من الزّيجات المختلطة التي تهدف إلى "تحسين النسل" "وتطعيم سلالاتنا"، الغالب عليها البشرة الشّرقيّة السمراء، بنفحات رطبة من رياح سيبيريا الباردة.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد اشتعلت الحرب الأهليّة في الدول الساعية للحصول على الاستقلال نتيجة انهيار دولة "يوغوسلافيا" الكبيرة ونشوء دُويلات صغيرة. فاشتعلت الحرب الأهليّة بين "صربيا المسيحيّة وكوسوفو والبوسنة، المكتظتين بالسكّان المسلمين، وبدأ التطهير العرقي ضد المسلمين. فهرع شبابنا وأفصحوا عن نواياهم الشّريفة بإغاثة الفتيات المسلمات في البوسنة، "فليس من المعقول لا دينيًا ولا اجتماعيًا، أن تبقى فتيات المسلمين بدون أزواج يرعوهنّ ويدافعون عن حقوقهنّ ويتركوهنّ عُرضة للمخاطر والمتاعب المترتّبة عن الحرب"، كما ادّعوا.

وها هو المسلسل يستمر اليوم مع الفتيات الأوكرانيات. ما الذي يحدث لشبابنا عندما تتعرض الشقراوات للخطر؟ هل ما زلنا نعاني من عُقدة الفتاة البيضاء الشقراء ذات العينين الزرقاوين؟ ماذا لو كانت الحرب في الصّومال، هل ما زلنا نرغب في مساعدة "وإغاثة" الفتيات المسكينات؟ الجواب بالطبع لا، فنحن نسعى بكل قوانا إلى تحسين نسلنا وتغيير "ألواننا" لنصبح "متلوّنين" ونواكب شعوب أوروبا المتقدّمة.

ام ما زلنا متأثرين بحياة السلب والنهب والغزوات والسّبايا من الفترة الجاهلية

هل للأمر علاقة بكوننا مسلمين ولدينا الخيار في تعدد الزّوجات؟ مثنى وثلاث ورباع؟

باعتقادي، ومن خلال أحاديث داخليّة رجاليّة، فإن الكثيرين من الرّجال يرغبون بالزّواج من أكثر من امرأة واحدة، ولكنّ الأغلبية لا يستطيعون ذلك، إمّا خوفًا من زوجاتهم، أو لمنع القانون لتعدد الزوجات، وإمّا لأسباب اقتصاديّة، فمن منّا يستطيع اليوم أن يفتح بيتًا اضافيًا ويتحمّل تكاليف الزّواج الباهظة الثمن؟

مهما كان الأمر ومهما كانت الأسباب، فأنا أعتقد أنه من العار علينا ومن العيب أن نقوم بالحديث عن هذا الموضوع وبهذا الشّكل حتى ولو مُزاحًا، فنحن شعب عانى وما زال يُعاني من التّهجير، والتشريد، والحروب الأهليّة، والاستعمار.

النكات حول ما يجري في أوكرانيا والاستهزاء بآلام الناس، كالاستعداد لاستقبال الحسناوات الأوكرانيّات وما إلى ذلك، تعبّر عن انحطاط أخلاقي وإنساني، بل وديني.

لاحول ولا قوة الا بالله صارت مصائب الناس ماده للتسلية والدّعابة، يا عيب العيب.

هذه حرب وتشرّد وموت، وأناس أبرياء واطفال وشيوخ، وأناس سوف تفقد احبابها وعائلاتها هي ليست مادة للسخريّة والمزاح..

علينا أن نحتضن هذه الشّعوب وأن نقوم بمساعدتها قدر امكانياتنا، وأن نأخذ الموضوع بجديّة كبيرة وألّا نعرض الأمر بالصّورة السّاخرة التّي يقوم بعض الأشخاص بعرضها في منصّات التّواصل الاجتماعي، حتى لو كان الأمر مُزاحًا. تخيّلوا لو كان الأمر عكسيًا، وقام شباب أوروبا بالتطّرق إلى أزمة شعوبنا وضائقة نسائنا بالصّورة التي تتعرض لها الفتيات والنساء الأوكرانيات، وعرضها كسلعة رخيصة للبيع، كمزاد لمخلفات الحرب. ماذا كنّا سنشعر وكيف كنّا سنتعامل مع الموضوع؟ لا اعتقد أننا سنكون متسامحين بذلك.

وهل يُمكن أن تخلو مقالتنا من طُرفة:

حَطَّ الدّهر يومًا بجُحا، وكان له دالّة على سلطان ذلك الزّمان، فطلب جُحا منه أن يعمل له "تنفيعة" إسوةً بسائر رجال البطانة.

ولمّا كان بعض الأنصار والأعوان قد هيمنوا على أكثر المرافق، لذلك تمنّى جُحا على السّلطان أن يستصدر له "فرمانًا" يخوّله بموجبه أن يستوفي حمارًا من كل رجل يثبت عليه أنه يخاف من زوجته.

وهكذا كان وحمل جُحا الفرمان وراح يطوف من مكان إلى مكان. وكان كلّما حَظِيَ برجل ثبتت عليه تهمة الخوف من زوجته غرّمه بحمار- بموجب أحكام الفرمان- حتى جمع عشرين حمارًا عاد بها حامدًا شاكرًا.

وعندما علم السّلطان بعودة جُحا استدعاه وسأله عمّا سمع ورأى من أحوال الرعيّة في رحلته "الحماريّة".

فشرع جُحا يروي على مسامع السّلطان من مشاهدات وما سمع من أخبار وإشاعات، إلى قال: "ورأيت من جملة ما رأيت، يا سيّدي السّلطان، على شرفة أحد البيوت في شارع البيلسان، فتاة، سبحان الذي براها، وجه جميل وطرف كحيل وثغر مثل السلسبيل، فتمنيّت أن تضمّها إلى حريمك، لتسلّيك وتحلّيك وتدفّيك وتجدد لك بهجة شبابك و...".

فصاح به السّلطان "كفى، كفى لئلّا تسمع الملكة كلامك فيتعوكر صباحنا وصباحك!".

فتناول جُحا الفرمان من عبّه، وقال: "وعليك حمار، يا سيدي السّلطان بموجب هذا الفرمان".

دمتم بحب وسلام

أ.أيمن جبارة